

الفصل الثالث

تجاه الفلسفة الوضعيّة

لم يكن من بد أن يدق بعض الفلاسفة والمفكرين من جديد ناقوس الخطر على الإنسانية ليحذر :

● من خطر الفوضى العقلية والمذهبية التي عاشت فيها الإنسانية في مرحلة ما بعد الثورة الفرنسية

● وكذلك من خطر طغيان الرأسمالية واعتدائها على الحرية الفردية .

ثم يهد هؤلاء الفلاسفة والمفكرون في نفس الوقت الطريق الى تلافى هذا الخطر ، بعدما تعرضت هذه الحرية الفردية للتضييق أو الاختناق مرة أخرى . . . ومن الأسف أنها تعطلت بسبب الثورة التي قامت لفكها من أسر الأغلال ورعايتها والحفاظ عليها وهي الثورة الفرنسية ، وهي ثورة الإنسانية في القرن الثامن عشر (١٧٨٩ م) .

ان مآل الحرية الفردية اذا ما أطلق لها العنان أن تخلق في جانب التفكير فوضى فكرية لا تحد ، وفي جانب السياسة معايير غير أخلاقية وغير إنسانية ، وفي جانب المال ديكتاتورية طاغية لا ترى مصلحة وراء مصلحة من يمارسها ، ولا رحمة بمن لا يشترك فيها .

ولم يكد يمضى نصف قرن على قيام هذه الثورة حتى ظهرت واضحة ملامح الفوضى الفكرية والأخلاقية والسياسية في المجتمع الأوربي ، وحتى بدأ أيضا جشع المال وأصحابه في أوربا . مما مهد وبعث على أن يكون القرن التاسع عشر — وهو القرن التالي للثورة الفرنسية — قرن الاستعمار من أجل المال والصناعة ، وقرن استعباد الشعوب بديلا عن الحفاظ على الأفراد في ممارسة حرياتهم الفردية .

* * *

وفي هذا الجو ، وفي البيئة التي قامت فيها الثورة الفرنسية ، وفي المجتمع البشرى الذى أرادت أن تحرره هذه الثورة وترعى له حرية جميع أفرادها ومؤاخرهم ومساواتهم فى الاعتبار والكرامة البشرية ومباشرة خصائص الانسانية - ظهر الفيلسوف « أوجست كونت » . . . صاحب « الفلسفة الوضعية » و « الدين الطبيعى » .

وقصد بفلسفته أن يعيد تنظيم المجتمع . . . وذلك بتنظيم الحياة الفكرية على أساس منهج موحد لا يختلف عليه وهو المنهج الوضعى الذى لا يرفض الماضى فى تاريخ البشرية كلية ، ولكنه لا يتمسك به كلية ويستسمحه جميعه فى فترات البشرية المثقلة ، وإنما فحسب يستخلص منه العناصر التى تعين على فهم « النسبية » فى علاقات الظواهر الطبيعية والكونية وبالأخص الظواهر الاجتماعية .

وما سماه « العلم الوضعى » : يتجنب البحث عن أسباب الأشياء وعللها ، وعن جواهرها وحقائقها ، وينتج به الى استنباط القوانين التى تحكم هذه العلاقات بينها .

وهى من أجل ذلك ليست قوانين علمية مطلقة . وإنما هى تتبع العلاقات فى تغيرها بناء على تغير ما يربط بينها . ولذا فهى قوانين نسبية . وأهم ظاهرة للعلم الوضعى من أجل ذلك هى « النسبية » بينما ظاهرة الميتافيزيقيا هى التعميم والاطلاق .

وقد أعلن « كونت » نظرية « النسبية » فى سنة ١٨٤٨ . . . وهذا العلم الوضعى أو الفلسفة الوضعية تبتدىء :

● من الظواهر الواقعية . . . فيما عدا علم الاجتماع من العلوم الطبيعية .

● ومن الظواهر العقلية فى بحث « علم الاجتماع »

ولا يوقف على الظواهر العقلية الا بالرجوع الى تطور الانسانية ومراحل تقدم العقل البشرى .

وأسلوب هذه الفلسفة ليس هو « التجديد والمنطق » ، وإنما « الحقيقة والتاريخ » . ولذا تعتمد هنا فى جانب الظواهر الاجتماعية على التحليل التاريخى العقلى للانسانية .

كما قصد (كونت) تنظيم الحياة العاطفية بإبراز معالم الدين الطبيعى وهو دين الانسانية الذى هو السياسة والأخلاق الجديدتان ، وأنذى يقوم على المحبة والإخلاص للانسانية . وقد نادى بهذا رأى فى سنة ١٨٤٦ .

وبذلك كانت له فلسفة أطلق عليها فلسفة علمية ، وهى الفلاسفة صاحبة المنهج الوضعى أو هى الفلسفة « النسبية » كذلك . وكانت له سياسة نعتها بالسياسة العلمية ، وهى السياسة التى قامت على أساس دين الانسانية ، أو هى كذلك السياسة الوضعية .

وأراد « كونت » اذن أن يريح البشرية من الفوضى الفكرية ، والفوضى السياسية ، ويبعد عن المجتمع الجديد عوامل الفرقة والضعف ، كما يمكن له من أسباب التماسك والقوة .

وقد جعل « كونت » من بحث ظواهر العلاقات الاجتماعية واستهدافه الطبيعية الاجتماعية فى الانسان **التحول الجديد لعلم الاجتماع المعاصر** . كما جعل من علم الاجتماع قمة البحث العلمى التى تصب فيها جميع فروع البحوث العلمية أو العلوم الخاصة . وهو الغاية الأخيرة كذلك التى تسمى اليهسا البشرية فى تنظيم المجتمع على أساس علمى .

وتأكيد « كونت » لبحث ظواهر العلاقات الاجتماعية فيما سسماه علم الاجتماع ، وللميول الغيرية فى الطبيعة البشرية فيما سماه دين الانسانية — دفع بالفكرة الاجتماعية دفعا قويا كأساس لازالة العيوب والانحرافات التى تغلق المجتمع الانسانى وقد تسيطر عليه ، وكمصدر لبناء علاقات جديدة بين الأفراد وهى علاقات الانسانية والمحبة يعيشون من أجلها وفى جوها ، بدلا من أن يعيشوا فى اطار الفردية والانانية .

وبذلك أيضا وضع حدودا واطارات للحرية الفردية التى يمارسها الأفراد فى المجتمع فى أى جانب من جوانب حياته الفكرية والسياسية والمالية . وفى الوقت نفسه ينكر الاعتداء عليها ، فضلا عن التطويح بها أو كبتها .

الحرية الفردية من جديد :

ويجب أن لا يضحى بأحد الأمرين : الحرية فى التصرف ، وتوجيه ضروب النشاط نحو هدف واحد ، فى سبيل الآخر . فالتضييق على الفرد معناه هدم كرامة الانسان بالقضاء على مسئوليته ، كما أن عدم وجود الاستقلال « للفرد » والخضوع لهيئة اجتماعية لا تكثر بالفرد يجعل الحياة عبئا لا يحتمل

« وذلك هو الخطر العظيم الذى ينبج عن النظريات الاصلاحية الخيالية ، تلك النظريات التى تضحى بالحرية الحقيقية فى سبيل مساواة تقوم على الفوضى ، أو فى سبيل اخاء يفلو الناس فى تصوره » (١)

(١) فلسفة كونت للينفى بريل ص ٣١٨ — ٣١٩ طبع مكتبة الانجلو

المصرية .

يقول ذلك « كونت » في مواجهة النزعة المضادة التي نشأت في المجتمع الفرنسي والأوربي بصفة عامة كنتيجة لممارسة الحرية الفردية في المال ممارسة فيها غلو أدت الى سيطرة الرأسمالية ، وكتيار يتجه الى وقفها أو إلغائها أصلا وهي ما تعرف بالنزعة الحرة أو « الليبراليزم » *The Libralism* في الاقتصاد . وهي النزعة الاجتماعية في سياسة الحكم ، أو النزعة « الاشتراكية » في نظام المجتمع .

فمهما كانت الرغبة في تحويل الفرد في المجتمع من كائن انانى فردى الى كائن اجتماعى ، عن طريق تنمية ميول الغيرية فيه دفعا لأضرار الانحرافات القائمة على الغلو في ممارسة الحرية الفردية ، فإنه من غير المرغوب فيه قطعاً في نظر « كونت » أن يعتدى على هذه الحرية بأى اسم أو لآى مبرر ، لأن الاعتداء على هذه الحرية يخرج الفرد من نطاق المسؤولية ويهدر كرامته الانسانية في الوقت نفسه .

ويقول مرة أخرى موضحاً هذا المعنى :

« وبالجملة فبالرغم من أن تطور الكائن الأعظم — الانسانية — يخضع لقوانين . . فما أبعد كل فرد من أن تنمى شخصيته في هذا الكائن . . . بل انه — أى الفرد — يقوم فيه — في الكائن الأعظم — بوظيفته الخاصة ، كما يستطيع القيام بعمل يعترف له فيه بالفضل :

« فمن القوانين الاجتماعية في ذاتها قاعدة لتنظيم النشاط الانسانى ، وليست وسيلة لاستعباد الانسان .

« فليس من نتائج التضامن والاستمرار الانسانى أن تؤمن بنوع من المصير المحتوم « الجبرية » اذ يظل الأفراد مسئولين . ومن الواجب أن لا ننظر اليهم على أنهم اجزاء آلة أو خلايا جسم عضو ، أو أفراد قطع من الحيوان :

« فالانسان ليس نباتاً ينمو على الشعب المرجانية . . . ومقارنته بهذا النوع من النبات — كما يقول كونت — يدل على قصور عن فهم المغزى الفلسفى للتعاون الاجتماعى عند بنى الانسان ، وعلى جهل كبير بالحقائق البيولوجية التي تتصل بنوع الحياة التي يحيها هذا النبات .

« ان هذه المقارنة تحاول التقريب بين جماعة تقوم على الإرادة الحرة والاختيار وبين مجموعة تقوم على اشتراك غير ارادى لا يمكن التحرر منه :

« فالأفراد — في دائرة الانسان — مستقلون من الناحية الجسمية ولا يرتبط بعضهم ببعض في الزمان والمكان الا من ناحية الوظائف العقلية والخلقية .

« والانسانية التى هى الكائن الأعظم هى نوع من تجسيد الوظائف — الذكاء والميول الغيرية — التى ينزع الانسان الى تمييز نفسه بها عن الحيوان . وهى تحقيق مطرد فى خلال الزمن لقوى الذكاء والحاسة الخلقية التى تنطوى عليها الطبيعة الانسانية . وهى كذلك الصورة المثالية المجسمة لتلك القوى . وبهذا المعنى الأخير يصبح موضوعا للبحث والعبادة .»

« نالحياة الراهنة — للفرد الانسان — تجربة . . . والحياة الذاتية أى الاندماج فى الانسانية خلاص ، ومكافأة فى الوقت نفسه لمن يخرجون من هذه التجربة منتصرين . وفى ذلك ما يظهر لنا الى أى حد يظل المثال الأعلى الخلقى والدينى القديم قائما على المذهب الوضعى » (١)

و « ليفى بريل » اذ يعبر فى هذه النصوص عن فلسفة « كونت » لا يترك مجالاً للبس ، عندما يحدد فى نظره علاقة الفرد بالمجتمع أو علاقته بالانسانية .

● فالفرد مستقل وله حريته الفردية التى هى أساس مسئوليته فى التصرف .

● وفى الوقت نفسه مسهم فى تحقيق الانسانية التى هى كائن فوق أفراد البشرية جميعا . واسهامه فيها لا يلقى شخصيته ، واستقلاله لا يمنع اندماجه مع غيره فى وجود الكائن الأعظم الذى هو الانسانية .

وفى هذا ما يجعل أى وقوف عند حد استقلال الفرد ، أو عند وجود المجتمع الذى ينتهى أخيراً بالانسانية غلوا فى النظرة الى طبيعة الانسان ، وانحرافاً فى تحقيق الذات الانسانية .

وذلك معناه مرة أخرى : أن الحرية الفردية على الاطلاق ، والنظرة الاجتماعية على الاطلاق . . . كلتاهما تتعد عن الطبيعة البشرية وعن تحقيق أهدافها !!

فالارادة الحرة لا يمكن ان تطفى من الطبيعة البشرية لانها خصيبتها ومقوم لها ، والانطلاق فى استخدامها ومباشرتها ينتهى الى كبتها وضيق آثارها . واذن معالجة سوء استخدام الحرية الفردية لا يكون بانفائها ، وانما يكون بتحديد اطار ممارستها .

(١) المصدر السابق : ص ٣٣٠ — ٣٣٥ .

علاج الرأسمالية :

وعندما بدأ جنوح الحرية الفردية في استخدامها في شئون المال بالتحكم في التجارة في تبادل السلع وفي أجور العمل في المصانع وفي تحديد اثمان المواد الخام تصدا الى وفرة الربح لأصحاب المال ، ثم بدأ في الأفق الفكرى كعلاج لهذا الجنوح الاتجاه الى إلغاء الملكية الفردية بنقل الأموال من أيدي الأفراد الى الملكية العامة - لم ير « كونت » في هذا الإلغاء حلا لمشكل الانحراف في ممارسة الحرية الفردية في المال . وإنما في نظره الحل الجذرى والدائم هو في القربية الاجتماعية وحدها .

وهذا ليس معناه ان المال في نظره ليست له وظيفة اجتماعية ، فهذا أمر محقق له : « ... » وإذا كان من السخف أن يرغب بعضهم في إلغاء الملكية الخاصة فمن الحق الذي لا مرأ فيه أن الملكية ذات طبيعة اجتماعية ، ومن الضروري أن تخضع للتنظيم .

« وكل نظرية تنسب الى الملكية طابعاً مطلقاً هي نظرية مضادة للروح الاجتماعية . ولا يمكن الأية ملكية أن تنشأ ، بل من المستحيل أن تنتقل عن طريق صاحبها وحده بدون وساطة المجتمع . فالضرائب تشرك الجمهور في كل ثروة خاصة » (١) .

وبناء على الطبيعة الاجتماعية للمال كانت الضرائب حقوقاً مقررة للآخرين الذين لا يملكون المال في أموال من يملكونها .

ولكن الذى عناه وقصد اليه : إذا قامت الملكية العامة بديلاً عن الملكية الفردية ، ولم تكن هناك روح جماعية في إدارتها والإشراف عليها ، فالملكية العامة عندئذ لا توصل الى خير المجتمع . وعندما توجد هذه الروح في المجتمع ببقاء الملكية لأصحاب رؤوس الأموال لا يكون شراً . لانهم عندئذ يدركون الوظيفة الاجتماعية للمال فلا يسيئون استخدامها على أنها لمصلحتهم الخاصة .

وعلى ضوء هذا المبدأ ، مبدأ إخضاع السياسة للأخلاق ، وجعل الحق منطوياً في ظل الواجب ، ومبدأ الابتداء من المجتمع والانتقال منه الى الفرد . نجد أن المشكلة التى أثارها الشيوعيون تتخذ مظهرها جديداً .

« فوجود رؤساء الصناعات لا يكون شراً الا اذا استخدموا قوتهم في ظلم الناس الذين يخضعون لسيطرتهم .»

(١) المصدر السابق ص ٣١٧

« وهو على العكس خير إذا عرف هؤلاء الرؤساء واجبههم وقاموا به
خير قيام .»

« فالمصالح النسبية لا يههما أن تكون رؤوس الأموال المتروكة في أيدي
هؤلاء أو أولئك . . . ولكن بشرط أن يكون استخدامها للكتلة الاجتماعية .»

« ومن الواضح أن هذا الشرط الضروري يعتمد على الوسائل الأخلاقية
أكثر مما يعتمد على الوسائل السياسية .»

« فهذه الأخيرة تستطيع بلا شك أن تعترض على تكديس الثروات في
أيدي نفر قليل مما يهدد بشل النشاط الصناعي .»

« ولكن تأثر هذه الوسائل الاستبدادية يكون أضعف من الاستهجان العام
الذي توقعه الأخلاق الوضعية على كل من يستخدم ثروته في أنانية مفرطة .
ويزيد تأثير هذا الاستهجان الى درجة لا تمكن معها مقاومته كلما أصبح أولئك
الذين يتحملونه في حالة لا تمكنهم من انكار مبدئه ، نظرا لأن هذا المبدأ سيلقن
للجميع بطريق التربية الأخلاقية العامة . وعلى هذا النحو لم يكن خوف الأمراء
من تمرار الحرمان الذي كانوا يتعرضون له في القرون الوسطى بأقل من احترام
الناس الذين كانوا يشهدون توقيع هذا القرار » (١)

التربية الأخلاقية أولا :

وهكذا كان « كونت » على اتفاق مع غيره من أصحاب الاتجاهات
الأخرى على حاجة المجتمع الأوربي بعد الثورة الفرنسية الى إعادة تنظيمه .
وكان كذلك على وعى بعيوب المجتمع الصناعي فيه ، وأنها عيوب تضر
بالإنسانية وبالمجتمع أكثر من ضررها بأفراد أو طائفة . وكان يعلم تماما تلك
التزعات الفلسفية والمذهبية المختلفة التي سادت البشرية آنذاك ما بين منكرة
لتراث الماضي كله أو مدافعة عنه ، وما بين ملحدة أو مؤمنة بالله ، وما بين
مساندة لطبقة دون أخرى من طبقات المجتمع أو على حساب الطبقة الأخرى
بينها .»

ولكنه آثر أن يكون بناء لا هداما ، وإيجابيا لا سلبي . آثر أن يفيد من
الماضي بقدر ما ينير الطريق الى المستقبل ، وأن يستهدف جمع الشمل لا التفرقة
في الصفوف ، وأن يتروى في العلاج ولا يركن الى الحماس المؤقت .
أراد أن يصل الى العلم ويستعين به وحده في تحقيق الهدف المنشود .»

(١) المصدر السابق ص ٣١٣

والعلم الذى يصل اليه هو الذى لا يطلب الحقائق المطلقة أو الثابتة لأن ذلك فوق طاقته (العلم) وعلى غير طبيعته . وهو كذلك الذى لا ينكر أكثر من أن يقوم بالفحص والتقدير بزهو العلم « النسبى » الذى يستنبط قوانين الترابط بين الظواهر ، دون التفتيش عن أسبابها وعللها وغايتها .

كان يعلم **وضع المجتمع الصناعى** على نحو ما يوصف هنا :
« ان النظام الصناعى — الذى لا يظهر لنا اليوم سوى الكفاح بين انواع الأنايية ليس الانظماً فوضوياً . وان ثلثت فقل : انه انكار لكل نظام .

» واذن فلم يكون المجتمع الحديث نظامه الخلقى حتى الآن . ولكنه سيكونه شيئاً فشيئاً ، كما كون المجتمع الحربى تقاليدده ، وتسيطر ميسول الابثارية على الحياة الحربية أكثر مما تسيطر على أى نوع آخر من الحياة .

» ومع ذلك فنظراً لأن هذه الحياة لا تنمو الا فى ظل الاتحاد فان هذا الشرط وحده كان كافياً لظهار امثلة رائعة من التفانى والاخلاص ، فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة الى الحياة الصناعية التى تقوم على حب السلم والعمل الانسانى .

» واذا لم يتم أمر الاصلاح وظلت « الفوضى » الحالية فى الأخلاق فسيظل المجتمع الحديث فى مرتبة أخط من مجتمع العصور الوسطى الذى كانت تنظمه القوة الروحية تنظيمها حقيقياً . بل سيكون فى مرتبة أخط من مرتبة المجتمعات العسكرية . اذ ما فائدة اخلال الاحتكار محل الغزو ، والديكتاتورية القائمة على حق أكثر ثروة محل الديكتاتورية القائمة على حق الأقوى ؟ (١)

ولكنه أثر علم الأخلاق الوضعية — طبقاً لمنهجه الوضعى ، وهو قاعدة السياسة فى نظره — أن يكون الوسيلة الى الاصلاح وآثر التربية الاخلاقية الوضعية أن تكون البداية الى هذا الاصلاح قبل أى اتجاه آخر يحاول اعادة تنظيم المجتمع واصلاحه :

» فالأمر كله يتوقف اذن على التربية الاخلاقية العامة (الاجتماعية) . .
وهذه بدورها تتوقف على انشاء سلطة روحية .

» ولقد أرادت المدارس المجددة جميعها توفير التربية الطبيعية ، والعمل المنظم للطبقة الكادحة . ولكنها كانت ترغب فى تحقيق الأمرين معا ، أو فى توفير العمل قبل التربية أما المذهب الوضعى فانه يريد تنظيم التربية أولاً (٢) .

(١) المصدر السابق ص ٣٢٣ — ٣٢٤

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٣ — ٣٢٤

ولانه أصر على التربية الأخلاقية أولاً لم يشارك أصحاب الاتجاه الاشتراكي في عنايتهم بأمر إعادة توزيع الثروة القومية ، كأنها كل شيء في حياة المجتمع ، وكأنها الوسيلة الحتمية الى رجوع الترابط والصفاء في علاقات أفراد المجتمع بعضهم ببعض :

« إذ لم يهتم الاشتراكيون — مثل ما فعل خصومهم من قبل وهم الرأسماليون — إلا بالثروة ، كما لو كانت الثروة هي القوة الاجتماعية الوحيدة التي أسيء توزيعها وأسيء الاشراف عليها .

« ولكن هناك قوى أخرى يجب الاهتمام بها : عاصلاح الأحوال الاقتصادية يتوقف في التحليل الأخير على صلاح الأخلاق .»

« واذن ينبغي إعادة تنظيم الحياة الخلقية قبل كل شيء . ويجب تحديد الحقوق والواجبات المتبادلة للمواطنين وجعل كل فرد يشعر بواجبه ويحترم حق الآخرين » (١) .

ومع أن تنظيم الحياة الخلقية يقوم في نظره على تحديد الحقوق والواجبات ، فإنه لا يرى التركيز على الحقوق وإبرازها على نحو ما يكون عليه الوضع بالنسبة للواجبات : فمن شأن التركيز على الحقوق ايقاظ الأثرة والأنانية في الإنسان ، وإحياء الفردية ، وذلك اتجاه لا يساعد على الإصلاح الاجتماعي وإنما روح التعاون والتضامن الذي هو هدف التربية الوضعية ،

« ومن هنا يرى أن تستبعد كلمة « حق » ، أو تلغى تماما في التوجيه والمعايير الخلقية ! ويشبهه الأخطاء المترتبة عليها في التوجيه الأخلاقي بتلك الأخطاء التي تترتب على كلمة « سبب » في التفكير الفلسفي ! ! يقول :

« ويجب أن تستبعد كلمة (حق) من اللغة السياسية ، كما يجب أن تستبعد كلمة (سبب) من اللغة الفلسفية . لأن كلتا الكلمتين تدل على معنى ميتافيزيقي . فكل فرد عليه واجبات قبل الجميع ، وليس لإنسان حق بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

(ففكرة الحق) خاطئة بقدر ما هي منافية للأخلاق ، لأنها تفرض مبدأ الفردية المطلق » (٢) .

و « كونت » مصيب في منهجه الفكري هذا إزاء الحق والواجب . إذ يكاد يكون الموجود على سبيل الحقيقة هو الواجب وليس الحق . ووجود الحق

(١) المصدر السابق ص ٣١٩ — ٣٢٠

(٢) المصدر السابق ص ٣١٩ — ٣٢٠

منطوق وجود الواجب . فاذا ما أدى الواجب وصل الحق الى صاحبه فعلا دون طلب له ..

وهنا نجد القرآن في أسلوبه التوجيهي يعدد الواجبات أكثر من أن يشير الى الحقوق ويؤكد طلب فعلها دون أن يقرنها بحقوق . والأوامر والنواهي العديدة تطلب كلها القيام بواجب : اما على سبيل الفعل أو سبيل الترك ، وتستهدف جميعها نقل الانسان من غرديته وأنانيته الى طبيعته الاجتماعية . تلك الطبيعة التي تمثل الانسانية وتجعلها الغاية الأولى في حياة الانسان كائنسان .

و « كونت » كى يؤكد فكرة الواجب و ابرازه وحده دون الحق في توجيه الانسان قرر أنه من الطبيعي أن تعنى الأخلاق بصفة خاصة بالفضائل الاجتماعية . ولكن ليس معنى ذلك في نظره أن لا يعنى بالفضائل الفردية . لأن اغفال هذه في التوجيه سيعقبه حتما عدم وجود النوع الآخر وهو تلك الفضائل الاجتماعية . فليس اغفالها الا ترك الانانية تأخذ طريقها المنحرف . وهذا يحول حتماً دون قيام أى معنى اجتماعى في سلوك الانسان وتصرفاته ، واذا ما عنى بهما لذلك فيجب أن تؤخذ على انها مقدمة ضرورية وليست غاية في ذاتها :

« ومن الطبيعي أن تهتم التربية الوضعية . بابراز الواجبات في مظهرها الاجتماعى . واذا كانت الوضعية(١) تأمر باتباع الفضائل الأولية (الفردية) كالاعتدال والعفة فليس ذلك لما تعود به من نفع على الفرد . وحتى في حالة ما اذا وهب الفرد طبيعة قوية تحميه من النتائج المرذولة للافراط أو التبذل فإن الاعتدال وكبح النفس يفرضان عليه بنفس القوة ، لأنهما ضروريان لاداء واجباته الاجتماعية على خير وجه .

« كذلك ليس هدف الأخلاق العائلية أن تبنى نوعاً من الانانية بين عدة أفراد ولكن هدفها هو تنمية عواطف المودة والتعاطف التى تمتد من الأسرة شيئاً فشيئاً الى الطائفة الاجتماعية ثم الى الانسانية .

« نمبدأ الاخلاص في جملة هو تعويد الانسان على أن يقدم الانسانية على نفسه ، وأن يجعل ذلك رائده في كل حركة من حركاته وفق كل فكرة من أفكاره .

(١) شعار الأخلاق « الوضعية » عند كونت : أن يعمل الانسان ما استطاع لكي تتغلب غرائز المودة بين الناس على دوافع الأثرة ، ولكي تتغلب النزعة الاجتماعية على النزعة الشخصية الفردية — فلسفة كونت ص ٣٠٣

« فإذا تم هذا الأمر انتظم المجتمع الحديث من تلقاء نفسه ، واستتب النظام الوضعى » (١) .

ضرورة العقيدة :

والدور الذى يجب أن تقوم به التربية الوضعية — فى نظر « كونت » هو أن تخلق فى الإنسان اعتقاداً « بالإنسانية » على أساس أنه لم يصبح إنساناً إلا بمشاركته فى الإنسانية ، وأن الإنسانية ذاتها لم تتكون إلا بإسهامه فى وجودها فهناك التقاء مشترك بينه وبين الإنسانية .

وإذا لم تنشأ فى الإنسان هذه العقيدة فلا توصل إلى الإصلاح الاجتماعى ، ولا يترتب عليها الآثار المرتقبة ، وهى آثار دفع الظلم والاعتداء عن طريق المال ، وتحكم الأثنية :

« وواجب التربية الوضعية أن تنمى عاطفة التضامن ، وأن تجعلها مبدءاً للسلوك الخلقى . وبذلك تنفعل فى نفس كل فرد عقيدتان تتضمن كل منهما الأخرى ، وتتم عنهما ضروب تفكيره وسلوكه ... »

« وأولاهما : أن يقنع بأنه لم يصبح إنساناً بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة إلا بفضل اشتراكه فى الإنسانية ، وذلك لأن ذكائه وأخلاقه أشياء اجتماعية بكل ما تضمنته هذه الكلمة من قوة . »

« أما العقيدة الثانية : فتتضمن معرفته بأن الإنسانية قد تكونت فى بعض نواحيها مما يساهم به فى بنائها ، وبأن كل عمل من أعماله رغب فيه أو لم يرغب يؤثر ويتردد صداه فى الحياة الاجتماعية . »

« ومتى اقتنعنا بأننا نعيش فى الإنسانية وبالإنسانية فإننا سنقتنع أيضاً بأنه يجب أن نعيش للإنسانية » (٢) .

التربية الأخلاقية وقاية من قيام الرأسمالية :

وبالفهم الذى يفهم به « كونت » وظيفة المال ، وبقية الدور الذى ينتظره من التربية الوضعية فى خلق المجتمع الجديد المتماusk الذى يستهدف الإنسانية ويعيش فيها ومن أجلها — لا يرى خطراً فى الرأسمالية . فأصحاب رأس المال سيرون حينئذ ، أى حين تنفيذ التربية الوضعية ، أنهم أمناء على المال وأنهم خلفاء على أمر عام لا يخصهم وحدهم وإنما هو للجميع .

ويوم تتحقق هذه التربية أيضاً سوف لا يفرق أى عضو فى المجتمع بين أمر خاص وأمر عام ، وبين وظيفة عامة ووظيفة خاصة أو وظيفة أكثر شأنًا

(١) المصدر السابق ص ٣٢٥ . (٢) المصدر السابق ص ٣١٥ .

وأخرى أقل اعتباراً : لأن الكل يسهم في الإنسانية التي هي الكائن الأعظم ، والكل يتميز وجوده عن غيره بها كما أن الكل يؤدي وظيفته في المجتمع ، لأنه يؤجر عليها ، ولكن لأنه يجب عليه أن يؤديها ، والأجر الذي يتناوله الفرد ليس أجراً على عمل وإنما هو تغطية لاستهلاكات عضوية في سبيل العمل . وانحراف رأس المال إنما جاء نتيجة لعدم قيام المجتمع الأخلاقي الجديد ، وفوضى العلاقات الموجودة بين رأس المال والعمل ، وخضوعها للصراع والمحاولات .

« فإذا ما نفذت التربية الأخلاقية العامة تحت السلطة الروحية (١) ، لم يعد هناك مجال للخوف من ظلم الطبقة الرأسمالية : إذ يعتبر الأغنياء أنفسهم من الوجهة الأخلاقية أمناء على رؤوس الأموال العامة . ولا تصبح المسألة في هذه الحالة مسألة « احسان » ، بل يكون من « واجب » من يملكون أن يحتقوا للجميع التريسة أولاً ثم العمل ثانياً . ويعلق « ليفي بريل » على هذه الآراء بقوله :

« ولا ريب في أن هذه الآراء قد تبدو شديدة الغرابة وممغنة في الخيال . ولكن يرجع سبب ذلك كما يقول كونت — الى أن المجتمع الحديث لم يكون نفسه بعد نظاماً أخلاقياً : فالعلاقات الصناعية التي اتسع نطاقها اتساعاً عظيماً ، يتحكم فيها نوع من المذهب التجريبي الخطر ، بدلا من أن تنظم تبعاً لقوانين أخلاقية ، والحرب وحدها — سواء أعلنت بشكل سافر أو محجب — هي التي تنظم العلاقات بين رأس المال والعمل .

« أما في الحالة الطبيعية (٢) للإنسانية (أي بعد اشاعة التربية الأخلاقية) فنرى على عكس ذلك : أن هذه العلاقات منظمة : فالقوة عندئذ — كقوة

(١) يرى « كونت » : أن القوة الروحية لا تحكم على نحو ما كان عليه الوضع في القرون الوسطى ، ومع ذلك فهي توجه الحكام كما توجه المحكومين . وهي التي تزود بمجموعة المعتقدات والعواطف المشتركة التي تتيح للجميع أن يعيش ... هو واجب الأخلاق إذن أن تحدد المبادئ (من هذه المعتقدات) التي تستخدمها السياسة الوضعية في تنظيم العلاقات بين الناس — فلسفة كونت ص : ٣١٢ .

(٢) عندما يكون هناك كمال أخلاقي « والكمال الأخلاقي ينحصر في تحقيق الانسجام بين جميع الناس عن طريق الإرادة الطيبة المتبادلة وفقاً لهذا المبدأ : الحياة من أجل الآخرين . ويؤدي ذلك في نفس الوقت الى تحقيق الانسجام في كل نفس فردية ، وذلك باخضاع الأنانية للعواطف الغيرية — فلسفة كونت : ص ٣٠٧ .

المال — لا تولد الاضطهاد . وكل مواطن يعتبر (موظفاً عاماً) ، يقوم بأعباء معيشة تحدد في آن واحد التزاماته ومطالبه (أى حقوقه) .

والملكية وظيفة كالوظائف الأخرى ، وليست امتيازاً : فهي تستخدم في تكوين وتنظيم رؤوس الأموال التي يعد بها كل جيل مشروعات الجيل الذي يليه . ولذلك يجب أن لا يحولها الملاك عن غرضها العام الى خدمة مصالحهم الخاصة .

« والعمال موظفون عموميون كأصحاب رؤوس الأموال سواء بسواء ، وليست الأعباء التي يقومون بها بأقل ضرورة للمجتمع ، وهم يستحقون أن يعترف المجتمع بجميلهم بصرف النظر عما يتقاضونه من أجور .

« والواقع أن عاداتنا الخلقية تنطوي على هذا النوع من الشعور اذا كان الأمر يتعلق بالمهن الحرة . فان دفع الأجر لا يعنى من العرفان بالجميل في هذه الحال . فيجب إذن أن يمتد هذا الشعور الى كل الأعمال التي تساهم في الرخاء العام . ويقول « كونت » ان خدمة الانسانية تؤدي بالجمان ، وأن الأجر مهما بلغ مئذاره ، يوازى الجزاء المادى عن كل خدمة . وهو يستخدم في تعويض الاستهلاك الذي يتطلبه العضو والوظيفة (١) أما عن جوهر الخدمة . في ذاته فليس له من جزاء الا الغبطة بأداء هذه الخدمة ، وعرفان الجميل الذي يثيره في النفوس .

« وعلى ذلك ففى المجتمع (تام التكوين حقيقة) (٢) نجد أن التفرقة في القيمة بين الوظائف العامة والخاصة مآلها الى الزوال ، فكما أن أقل جندي في الجيش له كرامته التي تنبعث من التضامن الوثيق بين أعضاء الوحدة العسكرية ومن اشتراك الجميع في اعلاء شرف واحد ، كذلك سينظر الناس الى أخف الحرف في الوقت الحالى على أنها حرفة نبيلة ، عندما تتيح التربية الوضعية للأفراد أن يشعروا بأن كلا منهم يساهم في بناء المجتمع » (٣) .

(١) مواجهة تكاليف المعيشة في الواقع . مواجهة لتعويض الاستهلاك الذي يستهلكه الشخص في حياته الشخصية ليحفظ بقاءه كإنسان وكعضو مشارك في تنمية الانسانية . وما يدفع له من أجر ليس في مقابل النشاط الانساني ، وانما هو في مواجهة حفظ البقاء فقط .

(٢) والمجتمع « تام التكوين » هو ما ساد فيه « المبدأ الأخلاقى » . فمبدأ الاخلاق في جملته هو تعويد الانسان على أن يقدم الانسانية على نفسه ، وأن يجعل ذلك سائداً في كل حركة من حركاته . وكل فكر من أفكاره فاذا تم هذا الأمر انتظم المجتمع الحديث من تلقاء نفسه ، واستتب النظام الوضعى .

(٣) المصدر السابق ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .